﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾

[العنكبوت: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مماثلةٌ بين من لا ينفع ولا يضرّ، إذ التّعلّقُ به وهَنٌ كوهَنِ العنكبوتِ بالعنكبوت

لمّا ذكر البيان القرآنيّ في الآيات السّابقة أحوالَ المستكبرين وعاقبةَ أمْرِهم، وكان استكبارُهم وما حاقَ بهم من العذاب، بسببِ استغنائهم عن الله بأولياءَ لهم تعلّقوا بهم من دونه، ولم ينفعوهم بشيء لمّا أُخِذوا بالعذاب ولم يُنقذوهم ولم يَنصروهم من دون الله، فوَهَنوا عنهم، مثَّلَ لهم ذلك الضَّعفَ وذلك الوهنَ بِوهَنِ العنكبوتِ بالعنكبوت، فضربَ الله المثلَ هنا بذلك؛ لتقرير ذلك الخسران.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: (ولي) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، ومِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ (بسكون اللّام): الْقُرْبُ، يقال: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ[1]، والوَلِيُّ والمَوْلى يُستعملانِ في معنى الفاعل، أي: الموالي، وفي معنى المفعول، أي: الموالَى، فالوليّ يقال: للمالك السَّيِّد، ويقال: للعابِد الخادم[2]، والمرادُ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: متعلَّقاتٍ ومعبوداتٍ يُؤمِّلون ولايتَها عليهم بالنّصر والإعزاز، ويتولّونَها بنَصْرِهم لها ودفاعِهم عنها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ هؤلاء المشركين الّذين اتّخذوا من دون الله تعالى أصنامًا يعبدونها، ويرجونَ نفعَها وشفاعتها، كحال العنكبوت في اتّخاذها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ولي).

بيتًا ضعيفًا مُهلهلًا، لا ينفعُها لا في الحرّ، ولا في القَرّ، ولا يدفعُ عنها شيئًا من الأذى[1]، فكذلك هؤلاءِ المشركون لم يُغنِ عنهم أولياؤُهم الَّذين اتّخذوهم من دون اللّه شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما حلّ بهم من سوءِ العذاب بكُفْرهم به وعِبادتهم سواه، ثمّ ذكرَ جهلَهم وسوءَ تقديرهم لِما صنعوا، فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لو كان هؤلاءِ الّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياءَ، يعلمونَ أنّ أولياءَهم لا يُجْدونَهم فتيلًا ولا قطميرًا، كما لا يُجدي بيتُ العنكبوت عنها شيئًا ما فعلوا ذلك؛ لكنّهم قد بلغ بهم الجهلُ وسوءُ التّقدير حدًّا لا يستطيعونَ معه العلمَ بعواقبِ ما يفعلون، ومن ثَمّ فهُم يحسبونَ أنَّهم ينفعونَهم ويقرّبونهَم إلى اللّه زلفى[2]، فالمقصودُ من المثل تجهيلُ المشركين وتقريعُهم، حيثُ عبدوا من دون اللّه تعالى آلهةً، هي في ضعفها ووهَنِها تشبهُ بيتَ العنكبوت، وأنهم لو كانوا من ذَوي العلْم لما عبدوا تلك الآلهة[3].

ضَـــرْبُ المـثَـلِ بـالـعـنـكـبـوت تـهـويـنٌ مـن شـأنـهـم إذْ قـاسَـهـم على حـــالِ مـا هو ضئيلٌ هيّن

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

جملة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ استئنافٌ مسوقٌ بعد تفصيل عقوباتِ المُكذِّبين؛ لتقرير قُبْح حالِهم في الظُّلم والتّكذيب، بجعْلِهم محلًّا للتمثيل، وموضوعًا تُضْرَبُ عليه الأمثال[4].

بلاغة المَثَل في دقّـةِ تـطـابُـقِ مَـضْـرِبِـه مع مَوردِه

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التّعبير بالصّلة الّتي هي المضاف إليه في جملة ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ جاء لتعظيم قباحة مضمونها، والتّشنيعِ به على الموصوفين بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾،

التّعبيرُ بفعلِ الاتّخاذ يدلّ على تعَبِهم ونَصَبِهم في الباطل

(1) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 40.
(2) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 143.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 40.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.

والتّعبيرُ بالاسم الموصول الخاصّ نَصٌّ في تمييز المشركين أكملَ تمييز، وذمٌّ لهم أوضحَ تمييز، وإشارةٌ إلى كونهم معلومينَ معروفينَ بمضمون الصّلة عند المُخاطَب، فلا يَخْفَوْن، ولا يَلتبِسُ حالهم على أولي الألباب؛ لأنّ الغرضَ من الصِّلة تعريفُ المذكورينَ بما يعلمُه المخاطبُ من حال الموصول؛ ليصحّ الإخبارُ عنه بعد ذلك[1].

عَوْدُ الضّمير (الواو):

عَـــوْدٌ خـاصٌّ لمشركي مكّة، وعـامٌّ لكلِّ مَن تولّى غير الله في حاجته

(الواو) في قوله ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ضميرُ جماعةِ الفاعلين، ومَرْجِعُ هذا الضّمير يعودُ إلى مشركي قريش، فيكونُ على ذلك المرادُ من الموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ مُعَيَّنًا، ويصحّ أن يكون مرجعُ الضّمير عامًّا، فيعودُ على جميع مَن اتّخذ وليًّا مِن دون الله سبحانه في الاعتماد والاتّكال والتّعلُّق، ولو لم يكن على جهة العبادة، وعلى هذا فالمرادُ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تعريفُ الجنس، والمرادُ من صِلَتِه العموم، فليس المقصود بذلك فئةً معلومة، بل المقصودُ الجنس، فيكون هنا الاسمُ الموصول كـ(أل الجنسيّة)، إلا أنَّ (أل) تدخل على المفردات، وهذا يدخلُ على الجمل[2].

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾:

وَضاعَةُ ودونيّة مَن تولّى غير الله

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ ابتدائيّة، أي: ابتدأوا اتّخاذ الأولياء من جهةٍ سِوى الله، و﴿مِن﴾ الابتدائيّة هنا أخصّ في المعنى مِنْ أن يقول: (اتّخذوا دون الله)، لأنّ المعنى الأخصّ يُعيّن مبدأ الاتّخاذ، وتعيينُ المبدأ يفيدُ القُربَ وعدمَ الفاصل، أي: اتّخاذٌ ناشئٌ من الجهة القريبة الدّانية الّتي تلي اللّهَ في الرّتبة والمقام، فـ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يدلّ على اعتقادِهم ومسلَكِهم، في أنّهم كانوا يتّخذون هذه المعبوداتِ لِتقرّبهم إلى الله زُلفى، فهم يتّخذونها

(1) فاضل السّامَرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 122.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 364، وفاضل السّامَرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 122.

من دونه، أي: بعدَه مُباشرةً، أوْ تدلّ على القُرب الرُّتْبيِّ بمعنى أنّهم جعلوها في منزلةٍ قريبةٍ من الله في استحقاق العبادة، ولكنْ مع ذلك هي دونه في الحقيقة ولا تساويهِ أبدًا، ولو قال: (اتّخذوا دون الله) لاحْتملَ الاتّساعَ وعدمَ القُربِ الرُّتْبيِّ، وهذا القربُ الرُّتْبيُّ هو كما بينَ الوسائل والغايات، فالوسيلةُ دونَ الغاية؛ لكنّها تقترب منها وتنشأ قبل رُتبتِها، ولو تمّ إسقاط الجارّ ﴿مِن﴾؛ لكان ذلك لتقليل عدد الرُّتَب تحت رُتبته سبحانه وتعالى، إلا أن وجود الجارّ ﴿مِن﴾؛ جاء ليدلّ على ما يصلحُ من تلك الرُّتَب للاتّخاذ المذكور بحسب اعتقادهم، وأمّا ما تحتَ ذلك، فهو ممّا لا يُؤبَه له؛ لحقارتِه[1].

نكتة التّعبير بالدّونيّة:

وَضاعَةِ مكانَةِ أولياء المشركين، وأنَّ العِزَّةَ في جنب الله وحدَه

التّعبيرُ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾؛ للدّلالة على دونيَّة المكانةِ لأوليائهم، وتفاوتِ الحال بينهم وبين الله، وهو يُشعِرُ بنفي التّساوي بين معبوداتهم الباطلة وبينَ الله سبحانه، فـ﴿دُونِ﴾ هنا اسمٌ بمعنى (غير) يدلّ على أدنى مكانٍ من الشَّيء، وتفيدُ التّقصيرَ عن الغاية المكانيّة الحسيّة والمعنويّة[2]، فأُتيَ به هنا للدّلالة على نزولِ ما عَبَدوهُ في الرُّتبةِ والمقام عن مقام العليّ الكبير، وأمّا (غير) فهي هنا غيرُ مُناسبةٍ للسّياق، لإبهام مفهومها المرادِ منها، فهي لا تتعرّف بالإضافة، والمفهومُ المراد هنا متعيِّنٌ غيرُ مبهم، وهي المعبودات الباطلة، أوْ أولياءُ مُحدَّدون، بخلاف قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: 14]، ولم يقل: (من دون)، لأنّ المرادَ بحُكم الغيريّة - في آيتي الأنعام وفاطر - مطلقُ ما سوى الله تعالى، فهو غيرُ مُتعيّن، فيشملُ أيَّ وليٍّ مهما كان، وأيَّ خالقٍ سواه سبحانه على جهة الافتراضِ والتَّحدّي[3].

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 441.
(2) إبراهيم الشّمسان، أحكام (دون) ودلالاتها السّياقيّة، مجلّة الحركات، العدد الثّاني: 18/ 223.
(3) الرّاغب، المفردات: (دون)، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205، 9/ 674.

فائدة تقديم الجارّ والمجرور:

التّعلّق بالله وحده علامة الإخلاص

قدّم السّياقُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، على كلمة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ ولم يقل: (اتخذوا أولياء من دون الله)؛ لتحريمِ أصلِ الاتّخاذ من دون الله، فلا ينبغي أنْ يقعَ اتّخاذٌ دونَه في أيِّ شيء، لا في الأولياءِ ولا في غيرهم.

دلالة تنكير ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

تحريم كلّ أنواع الأولياء عدا الخالق سبحانه

تنكيرُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، للتعميم في الأنواع، فـ(الأولياء) ليسوا نوعًا واحدًا، أي: أولياءُ في العبادة، أوْ في الاستعانة، أوْ في التّعلّق، فالتّعميمُ يدخلُ فيه الشّرك الأكبرُ دخولًا أوّليًّا، ويلتحِقُ به الشّرك الخفيّ في التّعلّق والرّياء والتّعويلِ على النّاس في حصول الخير ودفْع الشّرّ، والانشغالِ بهم حتّى تَنْحَجِب النّفْسُ عن مُلاحظةِ كمال الخالق سبحانه في انفراده بالنَّفْع والضُّرِّ.

نكتةُ العدول عن (آلهة) إلى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

لفظُ الولاية أعمّ وأدلّ على كلّ علاقةٍ تتجاوزُ معاملةَ الله

عدلَ النَّظم الكريم عن (آلهة) إلى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في السّياق القرآنيّ، تقريرًا للتّعميم والاتّساع في المعنى، في وصف الولاية؛ فالأولياءُ أعمّ من الآلهة، فقد يُتّخذُ المخلوق وليًّا من دون الله، دونَ أنْ تُعتَقَدَ أُلوهيّتُه؛ وليكونَ لفظ (الولاية) إشارةً إلى إبطال الشّرك الخفيّ الأصغر[1].

نكتةُ التّعبير بـ(الولاية):

العبد إذا تولّى ما لا يُغني عنه نفعًا أو ضرًّا خسر الدُّنيا والآخرة

عبّر بوصفِ (الولاية) في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنّ مُتَّخِذي هذه المعبودات - أوْ هذه الوسائط عمومًا - يَرجون نفعَها، ويَطلبون النّصرَ منها، كالوليّ الّذي يَنفَعُ بالنُّصْرَة، والدِّفاع، وجلْبِ الخير، وما أشبه ذلك، وأيضًا سُمّوا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنّ المنحرفينَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.

في عقائدهم ينصرونَ تلك الوسائطَ ويُنافحون عنها؛ ولهذا قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: 68]، فهم يَنصرونَها، ويرجونَ النّصرَ منها، ولهذا سُمّيَتْ بالأولياء[1].

دلالةُ التّعبير بالمثَل:

تـضـربُ الأمـثـال لإظـهـارِ عجائب الأحوال

التّعبيرُ بـ(المثل) في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ يدلّ على إفراد ما في حَيّزه من مضمون؛ لأنّ المراد: صِفةُ هؤلاء كذا، لكنّ المَثَل لا يُقالُ في أيّةِ صفة، بل في الصّفةِ المشتملة على غرابةٍ تستدعي عجَبًا[2]، والمرادُ: صفةُ حالهم العجيبةِ الشّأن في الضّلال.

إجراءُ النّظم على التّشبيه التّمثيليّ المركّب:

تـشـبـيـه حـال المشركين بحال العنكبوت

إجراءُ طريقة التّشبيه المركّب، هي الأقربُ مأْخَذًا؛ لسلامتها من التّكلّف، فالتّشبيه هنا تمثيليٌّ مركّب مِن عدّة أوجهٍ؛ مِن مُشَبَّهٍ، ومشَبَّهٍ به متعَدِّدٍ، وأوْجُهِ شَبَهٍ متعدِّدَةٍ أيضًا، ويسمّى هذا التّشبيه تشبيهًا تمثيليًّا؛ لأنّه مركّبٌ مِن قِصّة متكامِلَة؛ مما يعني أنه لا يُقصَد في هذ التّشبيه أنْ يُشَبَّه عابدو غير الله بالعنكبوت وحدَها، ولا المعبودون ببيت العنكبوت وحدَه، بل قُصِد أنْ تُشَبَّهَ الصّورة المرسومة بهذا التّعبير الإلهيّ كاملةً بصورة كاملَةٍ مماثلةٍ حتى يتّضِح المعنى والمغزى من كلّ ذلك أمامَ المخاطَب[3]، فقد شبّه حالَ الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء، فيما اتّخذوه معتمَدًا ومُتّكَلًا في دينهم، وتولّوه من دون الله تعالى، بحالِ العنكبوت فيما نسجَتْه واتّخذتْه بيتًا، والغرضُ تقريرُ وهَنِ أمرِ دينهم، وأنّه بلغَ الغاية الّتي لا غايةَ بعدها من الضّعف والسُّخْف، ومدارُ قُطبِ التّشبيه أنّ أولياءهم بمنزلة منسوجِ العنكبوت؛ في ضعفِ الحال، وعدمِ صلوحِ الاعتمادِ

(1) ابن عُثَيمين، سورة العنكبوت، ص: 214.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 13/ 364.
(3) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 212.

عليه، وعلى هذا يكونُ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ تذييلًا يقرّرُ الغرض من التّشبيه[1]، أوْ: مَثَلُ المشرك الّذي يعبدُ الوثنَ بالقياس إلى المؤمن الّذي يعبد الله، مَثَلُ عنكبوتٍ يتّخذ بيتًا، بالإضافة إلى رجلٍ يبني بيتًا بآجرّ وجصّ، أوْ ينحتُه من صخر، وكما أنَّ أوهنَ البيوت إذا اسْتَقْرَيْتَها بيتًا بيتًا بيتُ العنكبوت، كذلك أضعفُ الأديان - إذا اسْتَقْرَيْتَها دينًا دينًا - عبادةُ الأوثان لو كانوا يعلمون[2]، أوْ: شبَّه الله تعالى الكفارَ في عبادتهم الأصنامَ، وبنائِهم أمورَهم عليها بالعنكبوتِ الّتي تبني وتجتهدُ، وأمرُها كلُّه ضعفٌ ووَهَنٌ؛ فكذلك أمرُ أولئك، وسعيُهم مضمحلٌّ، لا قوَّة له ولا مُعتمَد[3].

إجراءُ النَّظم على التَّشبيه المفرد:

غُـرور المشركين بِـشِـرْكِـهِـم مـثـيـلًا لـغـرور العنكبوت ببيتِهِ الواهِنِ

الطّريقة الثّانية: طريقةُ التّشبيه المفصّل المفرد المفرّق، فالمشركُ كالعنكبوت، واتخاذُه الصّنمَ معبودًا وملجأً كاتّخاذ العنكبوت لِما يَنسجُه بيتًا فإنّه يصيرُ سببًا لهلاكه، كعابدِ الوثن يقعُ في النّار بسببِ عبادته[4]، فالمشركون أشبهوا العنكبوتَ في الغرور بما أعدّوه، وأولياؤُهم أشبهوا بيتَ العنكبوت في عدم الغَناء عمّن اتّخذوها وقت الحاجة إليها، وتزولُ بأقلّ تحريك، وأقصى ما ينتفعونَ به منها نفعٌ ضعيف، وهو السُّكنى فيها، وتوهّمُهم بأنْ تدفع عنهم هو كتوهّم المشركين بالانتفاع من أصنامهم، وهو تمثيلٌ بديعٌ من مبتكرات القرآن[5].

موقعُ جملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ ممّا قبلها:

الـغـرضُ من التّشبيه تقريرُ وهَن دينهم

جملةُ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ حاليّةٌ من ضمير ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾، فالجملة من تَتِمّة الوصف واستيفاءِ التّشبيه؛ لتقريرِ الغرض منه، أي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 148، وصافي، الجدول: 20/ 341.
(2) الزّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 454، والبَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 195، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 437.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 357.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 385.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 252.

(اتّخذت بيتًا، والحالُ أنّه أوهنُ البيوت)، فأظهرَ في مقام الإضمار، وقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾؛ لإجراءِ إضافةِ البيت إلى العنكبوت، ولم يقل: (وإنّ أوهن البيوتِ لَبيتُها) بالضّمير العائد على العنكبوت؛ وذلك لتعميم الوهَن في بيوتات العنكبوت كلّها، فتعُمُّ الجنسَ كلَّه، ولإجراءِ التّركيب مجرى المثَل السّائرِ المستقِلّ، فأخلاه من الضَّمير حتّى يستقلّ في التّقرير[1].

ويصحّ أنْ تكون الجملةُ استئنافيّة؛ لتعليل المَثَلِ بوجْه الشّبهِ منه، كأنّه قيل: (تمثيلُ حالِ المشركين مع شركائهم بحالِ العنكبوت الّتي اتّخذتْ بيتًا، فذلك التّمثيلُ؛ لِتقرير وجهِ المشابهة، وهو أنّ أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوت، فكذلك هؤلاء، إذْ هم في اتّخاذهم الّذي اتّخذوه أوهنُ ما يكون).

ويصحّ أن تكون الجملةُ اعتراضيّةً بين طرفَي المَثل؛ لتسجيل وجه الشّبه، كأنّه قيل: (مَثَلُ الّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتًا لو كانوا يعلمون) ثمّ اعترضَ بجملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾[2].

بلاغةُ الإشارة في المؤكِّدات:

أمثالُ القرآن حقائقُ، لا مُبالَغاتٌ، فلا يجوزُ مقاطعتُها بالمعارضة والمزايدة

تومِئ المؤكِّدات المحشودةُ في جملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾ إلى أنّه لا يجوزُ تعدّي أمثلةِ القرآن بالتّجاوز والزّيادة؛ فلهذا لا يقالُ عن (بيتٍ): (إنّه أوهى من بيتِ العنكبوت)، فأيّ معنًى أبلغُ مِن معنى أكّده اللّه بستّة أوجه؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾، فأدخلَ (إنّ)، وبنى أفعلَ التّفضيل، وبناه مِن مادّةِ الوهَن، وأضافَه إلى الجمع، وعرّف الجمع باللّام، وأتى في خبر (إنّ) بلامِ التّأكيدِ المزحلَقة[3]، لكن يجوزُ أن يقال: (حجّةُ هذا

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 442، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 253.
(3) الزَّرْكَشيّ، البرهان: 1/ 484.

الرّجل أوْهى من بيت العنكبوت)؛ لأنّ الحجّة ليست بيتًا حقيقيًا، فليس فيه منازعةٌ لظاهر القرآن[1].

بلاغةُ الاستعارة التّمثيليّة في: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾:

مَن لم يَستقِ بالله تورّطَ في فِخاخ الضّعف والعجز

يصحّ إجراءُ قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾ على الاستعارة التّمثيليّة، والتّمثيلُ قبلَها توطئةٌ لها، فشبّه اتّخاذَهم وليًّا في غاية الضَّعف، بحال العنكبوتِ اتّخذتْ أوهنَ البيوت[2].

بلاغةُ الكناية في جملةِ الفاصلة:

نفيُ عِلْمِهم تعلّقَ بمضمون المَثَل المضروب، لا بأنّ أوهنَ البيوت بيتُ العنكبوت

جملة الفاصلة: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ كنايةٌ عن نَفْي عِلْمِهم بسببِ دخولِ أداة الشّرط ﴿لَوْ﴾، الّتي تفيد الامتناع للامتناع، أي الّتي تستلزمُ انتفاءَ مضمونِ جوابها لانتفاء مضمونِ شرطِها، والمعنى: أنّ اتّخاذَهم أولياءَ من دونه، كالعنكبوت اتّخذتْ بيتًا، فلو علِموا ذلك لَما فعلوه، ولكنّهم لم يعلموا وظنّوا أنّ اتّخاذهم الأولياءَ من دونه يُفيدُهم عزًّا وقُدرةً، فكان الأمرُ بخلاف ما ظنّوه؛ ولذلك ذُيِّلَتِ الفاصلةُ بصفة العِلم الدّالةِ على اليقين، تسجيلًا عليهم بأنّهم تائهونَ في دُروب الظّنّ، وإنّ الظّنّ لا يغني من الحقّ شيئًا[3].

موقعُ جملة: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّ سؤالًا نشأ عن تمثيل حالهم بالعنكبوت، فقيل: في أيّ شيءٍ منه؟ فأجيبَ: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾، أي: في حالها تلك[4].

دلالة الفعل بوزن (افتعل):

تكلّفٌ وعناءٌ يكابده كلُّ من لا تكون ولايته لله وبالله

في قوله: ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾: صيغةُ (افتعل) في قوله: ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾؛ للدّلالة على التّكلّف والعناء الحاصلِ من العنكبوت في نسْج بيتها، وفيه ملمحٌ

(1) تفسير العُثَيمين، سورة العنكبوت، ص: 215.
(2) صافي، الجدول: 10/ 341.
(3) ابن القيّم، أعلام الموقّعين: 1/ 316، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 9/ 22.
(4) صافي، الجدول: 10/ 341.

بديعٌ يعودُ على المُشَبّه، وهو أنّ الإنسان حين يتولّى غيرَ ربّه ﷻ الودود الكريم؛ فإنّه يتكلّفُ خلافَ فطرته الّتي طبَعَه الله عليها، ويتجشّمُ خلافَ ما خُلِقَ له، فيُعاني وهو يتولّى المخلوق، ويتولّى عن الخالِق، ويكأنّ كلَّ مُعاملةٍ لا تكون للّهِ وبالله، يَتَعنّى صاحبُها في العاجلة أوِ العاقبة أوّ في كليهما، فكذلك هؤلاء المشركونَ تكلّفوا اصطناعَ أربابهم ليَنفعوهم، ويَحفظوهم بزَعْمهم ويَرفعوهم، فكان ذلك كالبيتِ المنسوج من العنكبوت معَ تكلّفها في أمره، وتعبِها الشَّديد في شأنه، ولكنّه كانَ رغم ذلك كلِّه في غايةِ الوهن[1].

نكتةُ تأنيث الفعل:

معنى الضّعفِ في المَثَل يُناسبُه تأنيثُ العنكبوت

قوله: ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾ بتاءِ التّأنيث للعنكبوت، و﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ اسمُ جنس يقال للواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، واختير التّأنيث – هنا مع أنها يُعبّر عنها بالتّذكير – توكيدًا لِضَعفِها في اتّخاذها بيتًا؛ لأنّ السّياق واردٌ لتقرير وهَنِ ما تَبْنيه وتَنْسِجُه من بيتها وضَعْفِه، والتّأنيث يُناسِبُ الوهَنَ[2].

نكتةُ التّشبيه بالعنكبوت خاصّة:

إيضاحٌ لما يظنّه المشركونَ من فائدةِ اعتمادِ أولياءَ لا طائلَ لهم من ولايتهم على الحقيقة

شبّهَ اتّخاذَهم الأولياءَ، باتّخاذ العنكبوت بيتًا؛ لتقرير الوهَنِ في بيت العنكبوت، وتنزيلِهم في ركونِهم إلى أوليائهم منزلةَ العنكبوت الآوي إلى أوهنِ البيوت، وهو تقريرٌ لما يظنّونه من نفعٍ قد يأتيهم بولاية ما سوى الله، فإذ هو ما لا يُعِزّ ولا يرفع، ولا يفيد ولا يشفع، فيستمسِكونَ بما لا يعصِم ولا يمنع، وحالهم هذا كحال العنكبوت الّتي تظنّ أنّ اعتمادها على بيتها الّذي نسجته يأتيها بفائدة بيد أنه لا يكفيها الرّدى، ولا يَحجب عنها الأذى، ولا يقيها حرًّا ولا بردًا.

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 442.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 442، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40.

نكتة التّنكير:

مما يومئ إليه التّنكير حقارةُ الشّيء المنكّر وتقليل شأنه

تنكير ﴿بَيۡتًا﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًا﴾؛ للإبهام والتّعميم والإطلاق تحقيرًا وتوهينًا، أي: أيَّ بيتٍ من بيوتها المُتَّخَذَة، ويصحّ أنْ يكون للتّقليل والتضئيلِ، أي: بيتًا ضئيلًا لا شأنَ له ولا يُعبأ به.

معنى (أل) التّعريف:

(أل) التّعريف في ﴿ٱلۡبُيُوتِ﴾ وفي ﴿ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾؛ لاستغراقِ الجنس، فكأنّه قيل: (إنّ أوهن كلِّ البيوت وأضعفَها بيتُها، كما أنّ أوهن كلِّ الأولياء وأضعفَها أولياؤُهم)، وكذلك (إنّ كلّ عنكبوتٍ لا ينسِج إلّا بيتًا واهنًا)[1].

معنى ﴿لَوۡ﴾:

دلالةٌ على امتناع العلم الّذي أدّى إلى امتناع الإيمان

﴿لَوۡ﴾ في قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ شرطيّة امتناعيّة - امتناعُ وقوع الجواب؛ لامتناعِ الشّرط، فلما امتنع علمهم امتنع إيمانهم أي (عدمُ شِركِهم)، والتّقدير (لو كانوا يعلمون ما أشركوا)[2]، وأفادت ﴿لَوۡ﴾ بتعليقها تعليلَ اتّخاذهم آلهةً من دون الله تعالى بعدمِ علْمهم بمَن يستحقُّ العبادة، وعدمِ نظرهم في الأدلّة الواضحة على أنَّ تلك المعبوداتِ الباطلةَ ضعيفةٌ عاجزةٌ لا تحميها ولا تنصُرُها.

نكتةُ التّعبير بـ﴿لَوۡ﴾، دون (إنْ):

(لو) استبعاديّة للشّرط في حَيِّزها

لم يقلْ في السّياق: (إنْ كانوا يعلمون)؛ للدّلالة على البُعد في وقوع الشَّرط، فشرطُ ﴿لَوۡ﴾ أبعدُ في الوقوع من شرط (إنْ)، وهي تفيد التّقليلَ أيضا، كأنّه يقول: بعيدٌ أنْ يعلموا، وقليلٌ منهم مَن يعلم ذلك، فينتهي[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النَّحْو: 4/ 89.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النَّحْو: 4/ 90، 91.

نكتةُ دخول (كان) على فعل الشّرط:

تحقيقُ النّسبة بين المسند والمسند إليه

دخلتْ (كان) قبل الفعلِ المضارع في جملة الشّرط: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، ولم تكن العبارة: (لو علموا)؛ لتحقيق الشّرط، كأنّه قيل: لو تحقّقت نِسبةُ العِلم إليهم في تلك القضيّة لما أشركوا، وفعل الكونِ الماضي قبلَ الفعل المضارع يدلّ على العادة الماضيّة، أي: إنّ عادتَهم وشأنَهم وديدنَهم عدمُ العلْم بمضمون ذلك المَثَل[1].

غرضُ حذفِ جوابِ الشّرط:

إيجازٌ لدلالة السّياق عليه، ولأنّ ما يُلحظ لا يُلفظ

جوابُ الشّرط في قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ محذوفٌ؛ للإيجاز؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه، ولأنَّ كلَّ مُتحدِّثٍ بالعربية سليمِ الذّائقة، مستقيمِ اللِّسان يَلحظ هذا المحذوفَ من خلال السّياق فلا يَحسُنُ أن يُلفظ في أُذنَيهِ ما يُلحظ لديهِ، وعلى كل حال فإنّ التّقدير الّذي هو مقتضى المثلِ المضروب: (لو كانوا يعلمونَ أنّ اتّخاذَهم أولياءَ من دون الله في غاية الهوان، كهوان بيت العنكبوت، ما اتّخذوهم أولياءَ، ولكنّهم لا يعلمونَ)، والخلاصة: (لو كانوا يعلمونَ ذلك المَثَل ما اتّخذوهم أولياء).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوهَن والضّعف:

كلّ واهنٍ ضعيفٌ، وليس كلُّ ضعيفٍ واهِنًا

الوهَنُ والضَّعفُ متقاربانِ، فكلاهما يدلّ على انتفاء القوّة من النّفْس أوْ من البدَن أوْ منَ الحال، في الخَلْق أوْ في الخُلُق[2]؛ لكنّ الوهَنَ يُلحظُ فيه ضعفٌ مخصوص، فالوهَن أخصّ والضّعفُ أعمّ، وحاصلُ الفرق الدّقيق بينهما: أنّ الوَهَنَ ضعفٌ يُفَوِّت المقصودَ والغرضَ من الشّيء، أمّا الضَّعفُ فقد يُفوّتُ وقد لا يُفوّت، ودليلُ ذلك من كتاب الله سبحانه وهو قولُه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النَّحْو: 1/ 212.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضعف، وهن).

[النساء: 28]، أي: الضّعفُ مركوزٌ في أصل جِبِلَّتِه، ولم يقل: واهنًا؛ لعدمِ فواتِ الغرض منه؛ لأنّه معَ ضعفِه يقاومُ الشّهواتِ ويكابِدُ المشاقّ، فلم يَفُتِ القصدُ منه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النّساء: 76]، فهو معَ ضَعْفِه يحقّق قصدَه في الوسوسة والإغواء، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الرّوم: 54]، فلا يُقال: إنّ ضعفَ الرّضيع والطّفل يفوّتُ الغرضَ والوظيفة! لأنّه ليس كذلك؛ لكونه ضعفًا زائلًا ومُنقَضيًا بزوال مرحلته، إلى مرحلةِ القوّة، فلا يَفوتُ معه الغرضُ، وأمّا في سياق فواتِ المقصود أوِ اليأسِ من عدم استدراكِه، فقد استُعمِلَ الوهَنُ، وذلك كما جاء في كتاب اللّه على لسان زكريّا: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: 4] أي: ضَعُفَ ضعفًا لا يُرجَى بُرؤه؛ لفواتِ وظيفتِه والغرضِ منه، وكذا قال سبحانه وتعالى عن حمل الأمّ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14] أي: ضعفًا مركَّبًا لا يُداوَى إلّا بوضعِ الحمْل وزوال صِفَتِه بالكليّة، وقال سبحانه هنا: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾؛ وذلك لكون بيتِ العنكبوت يخلو من مقاصدِ عامّة البيوت، وهي الوقايةُ من الحرّ، والحمايةُ من البرد، فلمّا كان ضعيفًا إلى درجةٍ يَفوتُ معه الغرضُ الّذي تُبنى البيوتُ لأجله، وصِفَ بصفةِ الوهَن، واللّه أعلم وأجلّ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»